رجائي موسى

Telegram:@mbooks90

شجرة ليمون ونعناع أخضر

رواية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى هيلانة

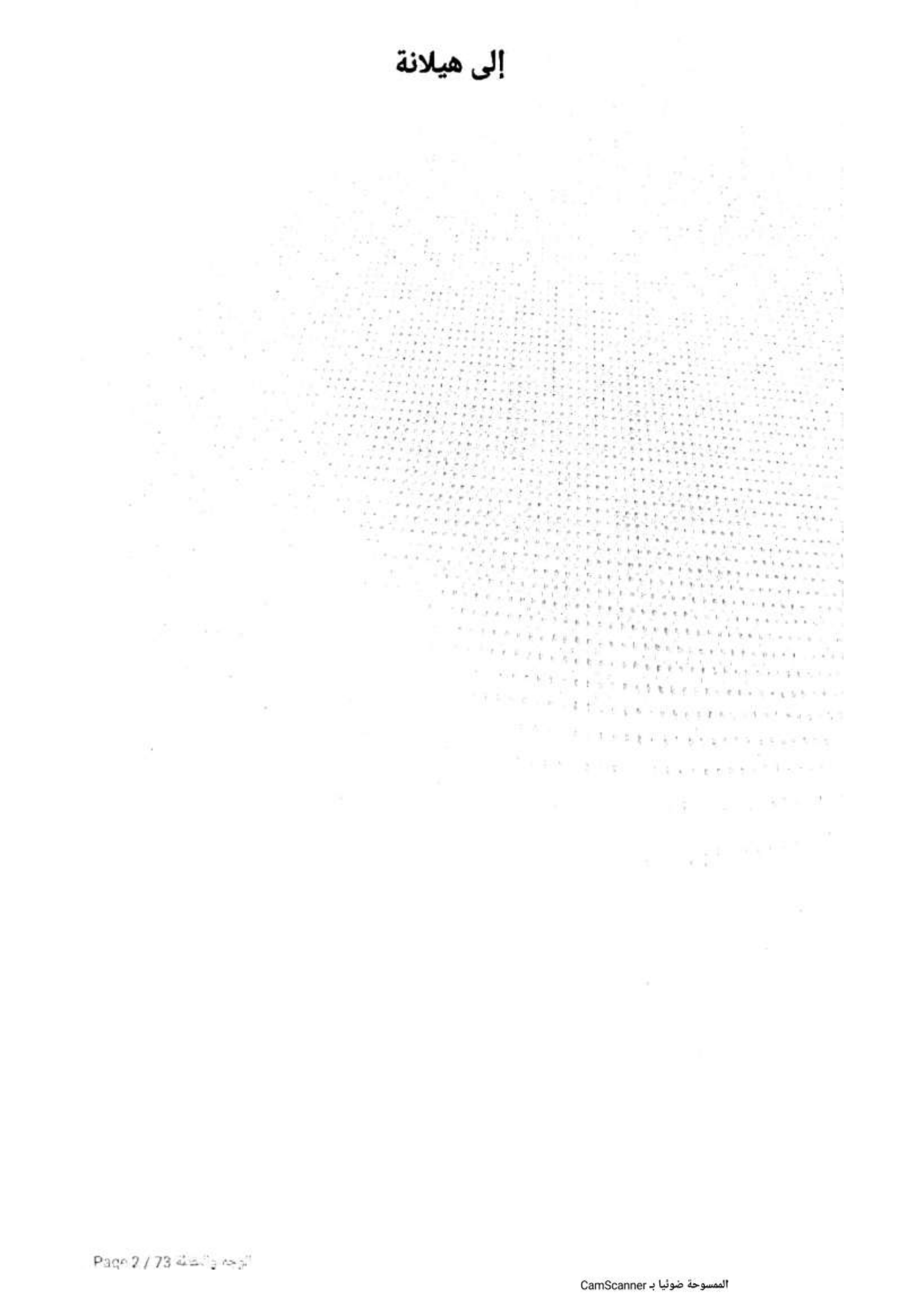

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموت زهرة تزهر مرة واحدة

لكن عندما يزهر لا يزهر إلا نفسه

يزهر حينما يريد لكنه لا يزهر في وقته.

بول تسيلان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت فى طفولتي أذهب إلى بيت الخادمات، الذى يقع فى وسط القرية. كان البيت قريبًا من بيتنا، ومن بيت جدي، ومن الجزار، ومن الطاحونة، ومن البقال أيضًا.

كانت رحلتي إلى بيت الخادمات سرًا من أسرار حياتي، وكنت لا أريد أن أكبر، سيتم منعي عن زيارتهن. الكبار لا يدخلون هذا البيت. تذهب الخادمة إلى بيوت الكبار ، لكن لا أحد يأتي إليهن إلا الأطفال الذين هم فى سني تقريبًا أو أكبر منى قليلًا. كنت فى سن السادسة وأنا أذهب إلى بيتهن، مرة أو مرتين فى الأسبوع. مرة يرسلني أبي من أجل حاجات بيتنا، ومرة جدي من أجل طلبات أو حاجات جدتي. كنت أنزل درجتين كى أدخل البيت، معظم بيوتنا، نصعد درجات السلم؛ لكى ندخل أو نخبط الجرس العملاق، الذى طالما رأيته يُخبيء جنيًا بداخله، يمكن بأي وقت أن ينطلق ويمسك بي. ظل هذا الهاجس وقتًا طويلًا، حتى قالت لى أمي لا تخف من الجرس المعلق على الباب، تخيله ملاكًا يرافقك ويحرس خطواتك. لم يكن حلًا مناسبًا، لأنى لم أقتنع أن هناك ملاكًا محبوسًا فى هذه الكتلة التى تشبه قزم عظيم البطن، أو ربما ضفدع تحول إلى قزم. قلت سأتخيله ضفدعًا يصب لي الماء كلما خبطته بصامولة الحديد المثبتة فى الباب. عندما أنزل الدرج إلى أسفل لكي أدلف إلى البيت، هذا يجعلني أكثر حذرًا كأن قدمي ستنزلق إلى أسفل، فى العتمة، فى التراب الرطب، رائحة البيت كانت تخطفني من التفكير بدرجات السلم النازلة. كانت رائحة صابون منعشة، كأن نعناع الله ينسكب فى المكان. احترت فى الأمر كثيرًا، مرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشم رائحة نعناع أخضر طازج كأنه خارج من الأرض حالًا، ومرة أشم رائحة ليمون، كأن شجرة ليمون تقف هناك فى وسط بيت الخادمات، وكبرت هنا فقط من أجل أرواحهن. أحب الليمون والنعناع معًا. الآن أجلس وحيدًا فى مطبخي وأفكر فى صنع كوب من الليمون بالنعناع من أجل ذكرى الخادمات اللواتي مررن بي عندما كنت طفلًا فى السادسة.

تضحك مريم وتقول لي: «تعال يا قلبي. فطرت؟»

مريم هى أصغر أخواتها، كن ثلاث؛ نادية أكبرهن، عزيزة، ومريم.

«آه فطرت». أقول.

«بس هاتفطر معي، صح». تقول

أضحك وأنا أجلس بجوارها،»صح».

تقول عزيزة:»جاى من عند مين؟»

«من عند سيدي».

«اه يعنى هنخبز يا ستي مريم».

أقول: «أيوه ستي قالت روح قول لمريم عايزين نخبز».

«يعنى قالتلك مريم مش عزيزة. طيب روحي يا ست مريم لوحدك». كانت عزيزة تضحك طول الوقت وجسدها الفارع يهتز، أما مريم تضحك بهدوء، وأرى غمازتين صغيرتين مثل نقطتي ماء حول الفم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن نادية كنت لا أرها تضحك كثيرًا. كنت أشعر بنوبة حزن عندما أنظر إلى عينيها، أحس أنها على وشك البكاء. عندما كبرت كلما رأيت لوحة لامرأة على وشك البكاء، أو على وشك السقوط، كنت أرى نادية.

تأخذني مريم من يدي إلى وسط البيت. البيت مكون من غرفتين ومساحة صغيرة أمام الغرفتين، منها سلم نحو السطوح، السطوح مساحتها قليلة، فقط، مساحة الغرفتين. كنت أرى أن هذا البيت مثالي جدًا، تنقصه فقط، طلمبة ماء مثل التي عند جدى، وشجرة ليمون صغيرة تظلل طلمبة الماء، وربما نصنع مصطبة هنا نحو اليسار، فى مواجهة الشجرة وطلمبة الماء، ونضع عليها مفرشًا ملونًا بالأزرق والأحمر. يمكن من هنا رؤية القمر بوضوح عندما يدور حول المنزل. تضع مريم فى حجري الخبز الشمسي الذى أحبه، وفى «طبق» أو فى صحن أبيض صغير، مزينة جوانبه بزهور زرقاء وحمراء، تضع لي بيضة وقطعة جبن.

«عايز جرير». تسألني مريم وهى تفرد ساقيها نحوي، وأنا أجلس أمامها على الأرض. أحب ساقيها وهما مرتفعان بما يشبة زاوية حادة مع الأرض. قدماها صغيران وأسمران، أصابع قدميها نحيفة وطويلة، كنت أحلم بأن يكون لي أصابع بمثل هذا الجمال. فستان مريم ملون بكل الزهور، مشجر، كأنه حديقة.

«اه بحب الجرجير».

«طيب قوم هات واغسله أنت. عندك أول ما تدخل الأوضه، فى

الطبق الكبير». تصف لي مريم المكان.

عندما أقوم وأذهب إلى الأوضة، أجد نادية تمد لي يدها بحزمة الجرجير وهى مغسولة وتنقط ماء: «خد حبيبي».

أنظر إلى عينيها وأتحول سريعًا إلى مريم. مريم تشكل لي سورًا وحماية. حماية من حزن نادية ومن سخرية عزيزة. سخرية لاذعة وحارقة. كانت نادية دائمًا تقول لها: «لمي لسانك يابت. محدش هايتحمل كلامك. وخاصة الرجالة».

«عارفه. أنا كده. لساني فالت».

«هو مش بس لسانك. مخك كمان طاقق». مريم تقول وتضحك.

تقول لي أمي:»مش هابعتك تاني لنادية». أمي تقول نادية لكن جدتي تقول مريم.

«ليه مش هاروح تاني؟»

«عشان بتروح وتغطس، مشوار ياخد ٥ دقايق وأنت تاخد فيه نص يوم. عايزة أعرف بتعمل إيه كل الوقت دا. وأبوك يسألني أقوله عند سته، وأنا باكدب، بس مقدرش أقوله إنك كل الوقت دا عند نادية. كان يقطع خبرك».

«أنا ماكنتش عند نادية، أنا كنت عند مريم. مش عارف ليه يقطع خبري. عملت إيه أنا. ماتكدبيش تاني وقولي لأبويا كنت عند مريم».

«أنت هاتفضحني عارفة. يا خوفي من اللى هيجيلى من تحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راسك».

أترك البيت وأنا لا أفهم ما تفكر به أمي. لماذا تقول نادية ولا تقول مريم؟ لماذا تكذب على أبي وتقول له إنى عند جدتي؟ ليه خوفها مني؟ ما الفضيحة التى تخشاها أمي؟

أنضم سريعًا إلى الأطفال فى الشارع وسريعًا نوزع أنفسنا إلى فريقين ونلعب بالكرة التى صنعناها معًا من الجوارب القديمة.

ونحن فى عز اللعب، فى انغماس تام، أصواتنا تعلو وتهبط، لمحت أبي فوق الحمار قادمًا من الغيط، فتركت المباراة قائمة وبسرعة البرق كنت فى البيت، أقف على عتبة الدار، أنتظر عودة أبي لكي أحمل عنه أعواد الذرة وكيزانها.

تسألني مريم: «تجوزني لما تكبر؟».

أوميء بالموافقة، وأنا أتلعثم وأنظر إلى وجهها. أريد أن أقول لها: نعم. أتزوجك والآن.

تسمعها نادية: «سيبي الواد يا خايبة. انتِ هاتستنى لما يكبر».

تضمنى مريم: «لو متأكدة هاستنى».

تصرخ نادية: «انتِ خايبة والله. دا مش هايقعد هنا. دا هايروح بعيد».

نظراتي تتوزع بين مريم وبين نادية. أحاول أن أفهم ما الذى يحدث بينهما. الكلام يهمني. الحوار يدور حولي. حول زواجي من مريم. يدور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حول الهرب. يدور حول السفر. يدور حول البعيد. يدور حول الزمن.

هنا معصم اليد فارغ. أنا بلا زينة. حول المعصم يلتف غبار. يعلو طشت الغسيل رغوة الصابون. تنداح الرغوة خارجًا، تسقط على ركبة مريم. الركبة تلمع. النجمة أيضًا فى سقف السماء تلمع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوجه واليقظة

كانت أمي قد وضعتني فى طشت الغسيل وجهزتني للاستحمام. الماء الفاتر. الليفة. الصابونة. الفوطة. الملابس الداخلية، وعلى مقربة من الطشت، الشبشب الصغير الجديد الذى يلمع. أمي تخبط رأسي برفق وبيدها الصابونة وتمررها بشكل دائري فوق رأسي الذى يشبه ثمرة القلقاس. رأيت هذه الثمرة صدفة وأنا أهرب إلى الغيط. أحب القلقاس كثيرًا، وأحبه أكثر وهو يسبح فى الماء فى لزوجة حلوة. وأنا فى الطشت، يد تمسك الحافة من الشمال، واليد الأخرى من اليمين، وأنا جالس فى الطشت، وأسند جسدي بمتعة فائقة. أسمع صوت مريم:

Telegram:@mbooks90

- يا خالتي

قلبي يخفق بشدة. مريم ستدخل وتراني عاريًا. حاولت أدخل بين ذراعي أمى، لكنها دفعتني برفق ودون أن تنتبه لي. جاوبت أمي:

- تعالي يا مريم

لم يعد هناك مفر. مريم هناك على بعد خطوات وأنا هنا فى الطشت عارٍ. لم أعرف مشاعري بالضبط. هل أنا خَجِل وأريد أن أهرب أو أنا فَرِح وأريدها أن تأتى وتراني عاريًا وتحممني بدلًا من أمي.

تدخل مريم وتضحك عندما تراني: «أخيرًا هاتستحمى».

أمي: «كل حاجة بيعملها بالحيلة».

تجلس مريم قبالي وتقوم أمي. تغسل يديها بالصابون وتعيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استحمامي من الأول. كل شيء صار رقيقًا وناعمًا. رأيت أوراق النعناع تسبح بميوعة فى الماء الفاتر. استحم بماء النعناع وأصابع مريم تمر على جسدي بخفة وهى تحكي مع أمي وأنا أسمع صوتها ورغوة الصابون على جسدي. وبدأت تغني.

يا جريد النخل العالي

ميل وارمى السلام

أنا قلبي مولع نار على بعدك

قلبي مولع نار

الليل الليل يا حبيبي

الليل عليَّ طال

تعاللى تعاللى بالنهار يا حبيبي

تعاللى بالنهار

يا جريد النخل العالي

ميل وارمي السلام

صوت مريم يدغدغني مثل يدها. اقتربُ أكثر من جسدها، أشمها. أدوخ وأحس أني سأسقط فى الماء، فأتشبث أكثر بالطشت. أظن أن حاسة الشم نمت على رائحة جسد مريم. يصيبني النعاس عندما أفكر بأصابع مريم، بصوتها، برائحتها. لا نوم بعد مريم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فين هدومك؟ قالت مريم.

ظهرت أمي ومعها ملابسي، وأعطتها لمريم، ألبستني ملابسي وهيأت لي حذاءً جديدًا لكى أخرج من الطشت دون أن ألمس التراب. كنت أفكر، لو كنت صغيرًا، كانت مريم ستحملني الآن إلي الكنبة، هيأت مريم كم الجلابية لكى أدخل يدي، أدخلت يدي وأخرجتها من الناحية الأخرى فلمست خد مريم. لا يمكن لطفل أن ينسى خدا بهذا الجمال والدفء!

هل ترون حبات الليمون مثلي؟

هل تشمون الرائحة؟

هل تحسون بملمس الليمون على الخد، على العنق، فى الفم؟

كل ليمونة تذكرني بمريم.

هل الليمون وهم؟ ماذا لو لم يكن هناك ليمون فى العالم؟ هل تشتعل حروب أكثر؟ هل تظهر الأوبئة من جديد فى العالم؟ أحب الشمس وهي تسطع على الليمون. أحب الشمس وهى تداعب الليمون. أحب الليمون وهو يغلي. أحب الليمون وهو نائم. أحب الليمون وهو يحلم. أحب الليمون وهو يمارس الجنس. أحب الليمون، هو إله الحديقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الليمون

استمعوا إليّ: الشعراء المكللون بالغار

وحدهم من يمشون بين نباتات

ذات أسماء نادرة: البقس، وجنبة الرباط والأقنثا.

لكني أحب دروبًا تؤدي

إلى خنادق عشبية حيث الأطفال

يرفعون بأيديهم بضع أسماك جائعة

من سمك الأنقليس من بُرَك شبه جافة:

دروبًا تمتد بجانب الضفاف،

وتمر ما بين الخيزران المقنبر

وتنتهي ببساتين، بين أشجار الليمون.

من الأفضل إذا كان صخب الطيور

يتلاشى، حيث الزرقة تبتلعه:

نستطيع أن نسمع همسات أكثر

لأغصان حميمة في جو غير هادئ تمامًا،

والأحاسيس الناجمة عن هذه الرائحة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي لا يمكن فصل ذاتها عن التراب

والأمطار، حلاوة مضطربة في القلب.

هنا، وبمعجزة ما، الحرب

الناجمة عن عواطف متكدرة تعلن هدنة؛

هنا نحن الفقراء، نتسلم، أيضًا، حصتنا من الثروات،

التي هي عبق الليمون.

شاهِد، في مساحات الصمت هذه حيث الأشياء

تكف عن الفعل فتبدو كأنها على وشك الكشف

عن سرها النهائي،

أحيانًا نحن نشعر بأننا على وشك

أن نكشف عن خطأ في الطبيعة،

النقطة الساكنة للعالم، الآصرة التي لن تبقى،

الخيط لغرض حلّ ذلك الذي سيؤول أخيرًا

إلى قلب الحقيقة.

العين تستكشف ما يحيطها،

العقل يستقصي صفوف العطر المنقسمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو يفوح

في أكثر الأيام وهنًا.

إنك في مساحات الصمت تلك ترى

في ظل كل إنسان عابر

بعضًا من ألوهية مضطربة.

لكن الوهم يفشل، والزمن يعيدنا

إلى مدن صاخبة حيث الزرقة

مرئية في هيئة بقع، إلى أعلى مابين السقوف .

المطر يرهق التربة آنذاك؛

ضجر الشتاء يثقل على البيوت،

الضوء يصير بخيلًا – النفس مريرة.

حتى اليوم الذي من خلال بوابة نصف مغلقة

في فناء ما، هناك ما بين الأشجار،

نستطيع رؤية صفرة الليمون؛

فيذوب الفلفل الحار في القلب، وفي أعماقنا

ترمي أبواق الشمس الذهبية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(1) أوجينيو مونتال (١٩٢٠- ١٩٥٤) من إيطاليا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى وصف الزوال

هل يجب على أن أعود قليلا إلى الوراء لكى أرى؟

الوراء. الوراء. الوراء.

لا شيء يحدث. فقط خطوات تنزلق فى ماء آسن. أقدام صغيرة تدوس برفق على رمال مبللة بالمطر. أتحدث الآن عن مطر!

لم يسقط مطر فى قريتى طوال فترة إقامتى بها، كل ما رأيته كان سيولًا. سيول تجرف المنازل والناس والبهائم والثعابين والعقارب. رأيت ثعبانًا فوق شجرة. كان يلتف على فرع قريب من الماء. رآه جدي، قال له: اتصرف انت. أنا زيي زيك.

الثعابين تعرف أوكارها. العقارب مخيفة. الرب لا يجد مكانًا له لكي يسند رأسه. ابن الإنسان فى غربة دائمة.

على أن أعود إلى الوراء لكي أرى. أعود إلى الوراء لكن لا أجد شيئًا. كل شيء مُحِيَ بامتياز. لم يبقَ لي شيء مما كنت أعيشه. الهواء نفسه لم يعد الهواء نفسه. كل شيء صار مخربًا. الصحراء نفسها رحلت. اختفت الصحراء التى كنت أذهب اليها كلما أردت أن أرى مريم. الفجوة التى كانت لي فى قلب الجبل، والتى كنت أسميها مغارة، حيث كانت تأتى إلىّ مريم، لم تعد هناك. قام الأهالي بتفجيرها بحثًا عن كنز قديم. صارت كومة فى قلب الجبل. صارت قطعًا متناثرة، من حجارة ميتة. كان الحجر قديمًا يدلني على وجه الرب. كان الغبار الناعم الذى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحوم حول أرنبة أنف مريم، حول الشفة السفلى، فوق الحاجبين، فى الخدين، فى حلمة الأذن، ...كان الغبار الناعم يلمع فى وهج الشمس. كان الغبار متوهجًا وكأنه من نحاس أحمر.

أنا الآن أتنزه فى زوال مريم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى وصف المقدس/السرة

«بماذا نشبه ملكوت الله، أو بأى مثل نمثله»إنجيل مار مرقص، الإصحاح الرابع، العدد ٤٠. كنت أؤمن بملكوت الله وبملائكته مجرد أن تقول لي مريم تعال. كان الصوت إلهيًا، وكان الماء إلهيًا، والبخار المتصاعد من الجسد ومن الطشت إلهيًا. مريم تدخل سحابة البخار ورغوة الصابون وأنا فى زاوية أرى تجليات الجسد الإلهي. كانت تقول لي: «عندما ندخل لا تتكلم. عندما نخرج لا تخبر أحدًا بما رأيت». كنت أقول: أريد أن أقول أنى رأيت. تقول لي: «لو قلت لن ترى شيئًا ولن يصدقك أحدٌ».

طلبت منك أن تحكي لي حكاية.

- أنا عايزة أروح أزور أبوي وعايزاك تيجي معايا.

- أنتِ عندك أب؟ هو فين؟

- هههههههههههه أيوه. بس كان عندي، دلوقت لا.

- يعنى إيه؟

- يعنى أبوي مات. واحنا نروح نزور القبر.

ربما كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها كلمة القبر. بالطبع كنت عرفت الموت من قبل، ورأيت الرجال يحملون نعوش الموتى وهى خارجة من قريتنا صوب المقابر، ولكن لم أفكر أبدًا بالقبر نفسه. هذه المرة فقط، عندما قالت مريم:»احنا هانروح نزور القبر». رأيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه المصطبة أمامى، وتخيلت الباب الصغير الموجود فى جانب منها، وينفتح إلى أسفل، هناك تتراص الجثث.

-حاضر هاروح معك بس ان شاء الله أبوي يوافق.

مر أسبوع ولا أعرف ماذا حدث لخطة مريم، ولكن فجأة وجدت أبي يقف أمامي وأنا ألعب فى الشارع. وقال: تعال عايزك

ذهبت وراءه، وأنا أفكر بالأخطاء التى ارتكبتها. «لو هاتروح مع مريم يبقى تروح تجيب حمارة سيدك وتاخدها معاك. بلاش الحمارة بتاعتنا. حمارتنا غبية». ذهبت فورا إلى مريم وقلت لها ما حدث.

قالت: ابوك غبي بس طيب

قلت: أعرف

وضحكنا بكامل جسدينا حتى سقطت منها، فحملتنى إلى حجرها «أحب ضحكك. بيطلع من القلب. عينيك بتضحك. وجهك، كل جسدك. وعندما ترفس بقدميك بدون قرار، أجرى نحوك وأحملك. أنت ابني».

يا مريمُ البِكْرُ فُقْتِ الشمسَ والقمرَ

وكلّ نجمٍ بأفلاكِ السماءِ سَرَى

يا أمّ يسوع يا أمّي ويا أملي

لا تهمليني متى عنّي الخطا صدرَ

يا نجمة الصبح شعّي في مَعَابِدنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونوّري عقلنا والسمعَ والبصرَ

صباح اليوم التالى، كنت أنا ومريم على الحمار ، فى طريقنا إلى القبر لزيارة أبيها. كنت أنا جالس قدامها فوق الحمار وهى خلفي وتمسك أحيانًا بي: مرة من كتفي ومرة من خصري. ما زالت أصابع قبضتها على جسدي. رأيت نفسي رجلًا كاملًا.

عندما دخلنا المقابر، قادتنى بسهولة إلى مقبرة أبيها، وفجأة نزلت من خلفي وركضت نحو القبر وهى تولول:«ابوي ابوي وحشتني يا عمري». صوتها مزقني من الداخل. رفعت وجهي فرأيت شجرة نبق
Telegram:@mbooks90
هناك، فتركت مريم مع أبيها، ورحت أجمع النبق من أجلي ومن أجل مريم. بعد وقت رأيت مريم تقف ورائي وهى تضحك وتقول: هات نبقة.

أكلنا حتى امتلأنا، جمعت نوى النبق فى كفي بعد أن التقطه من فم مريم، وهى فعلت الشيء نفسه. كانت تأكل النبق بنهم كأنها جائعة منذ زمن، وعلى شفتيها ينقط ماء يشبه العسل الأبيض.

- هاتعمل ايه بالنبق؟

هاحطه فى قزازة واشيله

- وأنا كمان هاعمل كده

فى البيت، وضعت نوى النبق فى زجاجة نظيفة، وكتبت على قصاصة ورق «نبق مريم» ولصقتها على البرطمان. هنا «نبق مريم»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفى المقابر «شجرة نبق مريم»، وفى البيت، شجرة «ليمون مريم».
مريم حديقة كاملة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى وصف النور/الركبة

أمس فى الشارع،

رأيتكِ يا مريم

جميلة جدًا قد رأيتكِ يا مريم (وكيف لى أن أصف لك كم أنتِ جميلة!)

حتى أنتِ نفسك يا مريم، لا تستطيعين رؤية قدر جمالك.

ولا تستطيعين تصور أنك يمكن أن تكونى بنظري جد جميلة.

ليس من امراة أجمل منكِ

وليس من عاشق يرى امرأة جد جميلة، كما أراكِ أنا.

ربما، يا مريم،

ما كنتِ جد جميلة

لأن جمالًا خارقًا كهذا قد لا يكون حقيقيًا!

كما رأيتكِ بهذا الجمال أمس بالشارع

أو كما يبدو لي اليوم

رأيتكِ يا مريم.

(أرنستو كاردينال)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل تذكرين مريم عندما وقعتِ فجأة وأنت تدخلين بيتنا ونزفت ركبتك قليلا وجلستِ تتألمين وتمرين بيدك فوق ركبتك وأنا أقلدُ حركتك وأمررُ يدي على ركبتكِ والتصقت بعض نقاط الدم بكفي فقلت لي: «روح اغسل ايدك». قلت لك: «لا. مش هاروح. خلي ايدى كده». فأخذتِ يدى ورفعتها إلى فمك وقبلتيها؟ أنا أذكر يا مريم كل شيء، وكفى يذكر، وركبتى أيضًا ترتعش عندما أحس بالسقوط. هل تعرفين معنى السقوط يا مريم؟(2)

السقوط هو النسيان. أن يحجب الله وجهه عني. أن يقف بعيدا ولا ينظر لي. أنا لا أفكر فى السقوط والخطيئة والطرد من الجنة و...، ولكن أفكر فى السقوط، اللامبالاة، الإهمال، التعثر، الغياب، وجع الأسنان، أسقط، أسقط، أسقط، دون توقف.

«السقوط الذى يغذيني بانفجار وفراغ. يغذيني بعصيان كلي وسخرية وتطهير». **هنرى ميشو**

---

(2) Qu'est- ce que la déchéance?

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا مريم

ركبتك شهية. ركبتك نورانية. ربما من أجل هذه الركبة كتب الله سفر نشيد الإنشاد. من أجل هذه الركبة صنع الرب سبت النور، لكي أذهب إلى القبر الفارغ وأضع يدى على الحجر وأحس ركبتك فى ملمس حجر القبر الفارغ. أنا فى المدينة مريم، ولا أرى أمامي سوى علب الطعام الفارغة، وملابس رثة بالطريق، وكلاب ضالة قذرة، لا تشبه كلابنا التى كنا نربيها فى بيوتنا، ونلعب معها فى الشوارع أو على السطوح.

مريم

كل شيء توقف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لماذا أكتب لك الآن؟

أعرف أنكِ لست هنا. أنتِ هناك، فى مكان ما، فى زاوية معتمة من العالم، فى الصور التى كنا نحدق فيها ونحن نبحث عن شىء يشبهنا، أنتِ هناك، مقيمة.

أكتب لكِ الآن يا مريم لأني وجدت نفسي مرفوضًا وغير مقبول من الآخرين. لا أحد يلتفت إليّ. أنا غير مرئي في العالم. أنظر إلى الآخرين وهم يمرون أمامي وعلى جانبي ولكن لا أحد يعيرني أي اهتمام. أنا لا أبحث عن المكانة يا مريم. لا أبحث عن أهمية. أنا أبحث عني. أنا لا أجدني في العالم. لا مرآة تعكس وجهي ولا يوجد من يلتقط يدي وهي تسقط في الليل. أنتِ وحدكِ كنتِ تعرفين مكاني. وحدكِ كنتِ تلمسينني. وحدكِ كنتِ تناديني. لم يكن لي اسم ولا وجه ولا طريق. كنتُ مجرد شيء. ها أنا الآن أعود كما كنت. عدت أكون ذاك الشيء الذي كان. كنت قبلًا أقول «ماء» فأجد الماء في فمي. أقول «جائع» فأجد خبزًا طازجًا في يدي. أقول «أنا» فأجدكِ أنتِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على باب الجامعة

مريم، أنا على باب الجامعة وأبلغ من العمر الآن ثمانية عشر عامًا. هل تأخرتُ فى الوصول إلى الباب. ضاعت مني سنة فى المدرسة الثانوية. ضيعتها من أجل تحسين المجموع الكلي؛ لكى أتمكن من دخول كلية الطب مثلما كانت تحلم بى القرية بكاملها. كنت حلم القرية. هل ترين هذا القدر الرهيب! لم أحلم بشيء مطلقًا. لم تكن لدى أي أحلام. لم يكن لدي فكرة عن الأحلام. كنت بريئًا وحرًا. كنت فقط أحمل أوهام الخطيئة الأولى. فى السنة الأخيرة من الثانوية العامة ذهبت إلى شاطيء النيل، ودفعت بكل الكتب المدرسية والكتب المقدسة إلى النيل. قلت له: خذ هذه الأوراق الميتة. أردت أن أتحرر من الخطيئة الأولى. أنا لم أقترف أي ذنب يا الله؛ لكى أتحمل كل هذا العقاب! لِمَ أنا شقي إلى هذه الدرجة! طالما فكرت فى كتابة القصائد التى تتجه نحوى، النصوص التى وجدت من أجلى: ريلكه، تسيلان، رامبو، أنسي الحاج، سركون بولص، نشيد الإنشاد، سفر أرميا، سفر حزقيال، رؤيا يوحنا، سبينوزا. حلمتُ أن أعيد كتابة هذه النصوص وأضعها وشومًا على جسدي. أحتاج إلى صحبة فى النوم. أخاف النوم وحيدًا. هذه النصوص ستضيء نومي. عندما كنت طالبًا فى الثانوية وفى الجامعة، لم يكن

يتوفر لنا ماكينة تصوير، يمكن عن طريقها تصوير ما نريده من صفحات. كنت أذهب إلى المكتبات العامة: مكتبة المدينة، المدرسة الثانوية، الجامعة، ومعى دفتر كبير ومجموعة متنوعة من الأقلام،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأعمل على نسخ ما يروق لي من نصوص، وربما أنسخ كتابًا كاملًا، حدث هذا أكثر من مرة وخاصة مع هيدجر وكيركجارد. استطاع هيدجر، عبر نسخه أو نسغه، أن يتغلل داخلي، أن يتسرب إلى جسدي كسم، كترياق. كان يعمل على تهدئة روحي. كنت أمتص هيدجر بمهل وعذوبة واستنشق الورق الأصفر ورائحة الطباعة كأنها سينايد، أما كيركجارد فكان يدخلني مثل شظية، ارتجاج، تصدعات، ما يجعلني أشعر بوخزة فى كتفي، فى رسغي، فى قدمي.

كان بول تسيلان منتحرًا قبيل ولادتى بنحو عام. فى عام ١٩٤٢مات أبوه فى معسكرات العمل النازية وبعده بوقت قصير ماتت أمه برصاصة من الخلف. ظل وقتًا طويلًا لا يعرف كيف يكتب اسمه، فى رومانيا حيث ولد، فى تشرنوفيتش، جزيرة صغيرة طافية فى المحيط الرومانى، جرمانية. كان اسم ولادته باول انتشل، أو بول انتشال، أو انسال باللغة الرومانية، وفى بوخارست يكتب تحت اسم تمسيلان، وبعد أن يلتقى بعشيقته انغيبورج باخمان يصير بول تسيلان. هو نفس ما وجدته مع اسمى، فهو رجائى ورجاء ورجا ومرة سمعته نجاح وبقيت إلى الآن لا أعرف لى اسمًا.

على باب الجامعة ١٩٩٠دخل صدام حسين الكويت، فتعطلت الدراسة، ورجعت من جديد إلى القرية. فقط أنتظر وأتابع الحرب على شاشة التلفزيون والنداءات المتلاحقة التى يرسلها الرئيس المصرى حسنى مبارك للخروج من الكويت، فى تمثيلية مكشوفة للجميع. الناس فى القرية كانوا ينتظرون دخول صدام إلى السعودية، لكى يستولي على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بترولها ويوزعه بالعدل على فقراء المسلمين. الناس كانوا ينتظرون تحرير القدس أيضًا. أنا كنت أرى صحراء شاسعة أمامي.

على باب الجامعة التقيت بأحمد عبد الحكيم، كان عائدًا فى أجازة من الجيش ومر بصديقه شعبان عبد الله بكلية الآداب، قسم اللغة الانجليزية. منذ هذه اللحظة لم أعد وحيدًا فى الجامعة، كنا ثلاثة، ورغم سفر أحمد إلى الجيش من آن إلى آخر؛ لكنه كان حاضرًا دائمًا فى أحاديثنا ونكاتنا، أنا وشعبان. أحمد عبد الحكيم كان يعرف أنه سيلتقي بي، عرفت ذلك من شعبان، فجاء ومعه رواية«البومة العمياء» لصادق هدايت. قال لي: «دى رواية بنت كلبة، كئيبة، ها تدمر حياتك». ضحكت ولم أكن أعرف أن ما قاله كان حقيقيًا. لم تكن الرواية فقط ولكن أحمد عبد الحكيم. فى أول لقاء، كنا على كورنيش المنيا، حكى لى أنهم فى كتيبته العسكرية يقولون عنه: إنه شيوعى وجرى تحقيق معه وتم مصادرة الكتب التى كان يمررها خلسة، ومنها هذه الرواية، وضابط المخلة بعد التحقيق أمرنى أن أؤم الكتيبة فى الصلاة. وفعلت ما أمرني به. لم يكن فعل الصلاة هو إعلان الإيمان، لكنه كان فعلًا مذلًا لي. لم يحدث لي، ولا مرة، أن أحسست بالذل وأنا أصلي. كنت مرات أحس بلا منطقية الأمر، مرات تنتابنى نوبة ضحك وخاصة عندما يمر أمامي ديك أمي وهو يقرقر بوجهي، فكنت أفكر هل يراني ملاكًا لأني أصلي. وكنت أضحك فى سري وأختم صلاتى. هذه المرة كانت الصلاة مذلة.

- ازاى رجعت الرواية؟

دى قصة تانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وغرق فى حزن عجيب.

أحمد كان نحيفًا وأسنانه صفراء تكاد تسقط من فمه عندما يضحك ويهتز فكه.

التقيت أحمد فى القاهرة، فى العام ١٩٩٤ وعشنا فترة فى سكن مشترك. عندما يذهب إلى النوم، يمد يده بشكل لا إرادى إلى عضوه، يأخذ فى التلاعب به وشده، لم يكن يستمنى، كان يبحث عن لحظة حب، كان يبحث عن أحد ما. كان فعل الاستمناء هو فعل استجداء. وبعد أن يقذف يهدأ وينكمش جسده مثل جنين ويكمل نومه بشكل طبيعى حتى الصباح. فى القاهرة، حكى لى كيف عادت إليه رواية «البومة العمياء» ومعها رسائل «رسائل محمود درويش وسميح قاسم» وأشعار «ناظم حكمت». لم يمر على إمامتى للصلاة، بضعة أيام، وسمعت صوت الضابط يناديني، فدخلت عليه مكتبه، قال لى: «خد صور لى الورق دا». دخلت المكتب المجاور، حيث ماكينة التصوير، وشغلت الماكينة، ووضعت الورق، وضغطت أمر تصوير، وانتظرت، وأنا فى تمام تركيزى لئلا الورق يحشر فى الماكينة، وفجأة وجدت الضابط خلفى، ويده على فمى، وبسرعة كان بنطالى بالأرض، وشيء ساخن وصلب دخلني، صرخت من الألم، وغرست أسنانى فى يده، وهكذا تركنى. خرجت بسرعة وتوجهت نحو الحمامات، خلعت ملابسى، وجلست أبكى تحت الماء.

السماء رمادية وثقيلة كالرصاص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأنا أصرخ،

أصرخ،

أصرخ،

وأنادى!

هيا، تعالَ بَدِّذ

هذا الظلام الكثيف

الثقيل كالرصاص...

وعندئذ يقول صوتٌ

بدوره:

"لكنك مثل كريم،

ستحترق،

ستحترق...

ولا دواء يَشفى

أمراض الإنسان الكثيرة الكثيرة."

كلّ القلوب صَمّاء،

لن يسمع أحد...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجو الكئيب ثقيل كالرصاص...

وأقول بدورى:

إذن مثل كريم،

سأحترق،

سأحترق.

إذا لم أحترق،

إذا لم تحترق،

إذا لم نحترق،

ونتوهَّج جميعًا فى اللهب،

فمن إذن يبدّد الظلمات؟

الجو صلب كالأرض،

السماء رمادية وثقيلة كالرصاص.

وأنا أصرخ،

أصرخ،

أصرخ،

وأنادى!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هيّا، تعالَ بَدِّذ

هذا الظلام الكثيف

الثقيل كالرصاص!(3)

فى صباح اليوم الثانى، جاء إلى مكانى، وقال لى: «تعال عايزك. فى حاجة عشانك». تباطأت قليلا، فعاد قوله فيما يشبه الطلب لا الأمر:»يلا ماتبقاش بليد كده». مشيت معه. لم أدخل المكتب، فانتبه لى. دخل المكتب وعاد وهو يحمل الكتب التى تم مصادرتها. فأخذت الكتب ومشيت إلى مكاني. بعد أيام وجدني زملائى أنزف أثناء نومى. دم يتدفق من مؤخرتى. تم نقلى إلى المستشفى، استيقظت هناك، وبعد أن تعافيت قليلا، وجدت مجموعة من الضباط يدخلون ويتحلقون حولى ويقولون لى:»احكلنا اللى حصل معك».

قلت متلعثما: محصلش حاجة.

قال أحدهم: يا دفعة تقرير الطبيب بيقول حصل اغتصاب.

عند سماعى للكلمة، فقدت وعى، بعد قليل استيقظت، فوجدهم حولى. قلت:»حصل. الظابط ...»

لم أرجع للكتيبة ولكنهم نقلوني إلى قطاع المهمات داخل القاهرة، وعرفت أنهم سرحوا الضابط ورجع يعيش كلب فى طنطا مثلما كان قبلًا.

أنا أعيش فى ذل يا صديقي. أفكر فى حياتي طول الوقت. ما أقسى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تفكر فى حياتك طول الوقت وهى ميتة! لا أقدر أن أنظر إلى وجه أبي، وجه أمي، إخوتي وأخواتي، زملاء دفعتى لو التقيت بهم صدفة. الأمر كان معروفًا للجميع. ولم أكن أنا أول ضحية له. أحس بقذارتى طول الوقت. أفكر فى السفر إليه وقتله. أنا حتى لا أقدر على الثأر. أنا خائر. هل تعرف معنى خائر؟ ضعيف، هزيل، واهن العزم.

على باب الجامعة، التقيت لولا، فى السنة الأخيرة، كأنها مكافأة جاءت بعد أربع سنوات عجاف. لولا تدرس فى قسم ارشاد سياحى، نفس دور قسمنا، قسم علم النفس. لى صديق من قريتي يدرس معها، فيمكننى أن أنتظره حتى ينتهى من محاضراته، يمكننى أن أذهب إلى القسم وأسأل عنه، يمكنني أن أفعل أى شيء تحت هذا الساتر الرائع. كلمت بلدياتي عن لولا، وقال: «انت ودماغك. بس ماتحرجنيش مع حد». قلت له: «وأنت تطول يا معفن». ضحكنا ونزلنا سلالم الكلية بسرعة فائقة لكى نلحق بخطوها. قال لى: «عايز أقولك على حاجة بس ماتزعلش».

- هه قول

- انت ذوقك فى البنات عجيب.

- عارف. هذا يعجبنى

- مختل عقليًا وعاطفيًا

هى قصيرة، ممتلئة قليلًا، ربعة كما يقال فى التراث العربى، سمراء، وشعرها أسود فحم ويشبه سلك المواعين، لا يمكن التعامل معه أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا بقصه. عيناها شديدتا السواد، لا يمكن أن تعود منهما كما كنت على حافتهما. رموشها يمكنها أن تستقبل فراشات كثيرة. يدها دقيقة مثل يد يابانية وأصابعها صغيرة ورقيقة مثل زنابق حقل. برتقالتان حلوتان صدرها. بعض النمش يطير حول رقبتها، نمش بنى مثل نمل. رائحتها ليمون. بطنها نحاس. ردفها غيمتان تائهتان. كم طلبتهما أن يتعثرا هنا، أن يتلكأ قليلًا! لم يكن اسمها لولا، كان قريبا من هذا الاسم. أريد أن أكتب اسمها. لا يمكن أن أتحدث إليها وأناديها باسم آخر. أنا أحب اسمها. فلتكن لولا، بولا، نولا، سولا، كولا، تولا، علىّ أن أغير حرف البداية حتى أصل إلى اسمها. هى فى آخر الكلام، فى آخر الحروف، بولا. كنت أطاردها فى كل مكان: أمام بيت الطالبات المغتربات، فى الكنيسة، فى شوارع المنيا: طه حسين، ابن خصيب، الكورنيش، عدنان المالكى. كان لى أصدقاء يأتون لى بأخبارها وتحركاتها. قال لى: «الحقها فى الميكروباص دا. طيب أنا هسبقك». وفعلا ركض نحو الميكروباص، وجلس بجوارها، كنت وصلت أنا، فقال لى: «تعال اقعد هنا». نزل من الميكروباص وتركني بجوارها، وفى لحظة نزوله، نظر لى وقال:»اتشطر شوى». نظرت إليها، وجدتها تضحك. كانت المرة الأولى التى تضحك فيها بهذا الدلال. قالت: «صاحبك بيحبك». قلت: «وأنا كمان».

Telegram:@mbooks90

«هو اسمه ايه. أنا باشوفه معك كتير»

- محمد التونى

- فى كلية ايه؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا مش فى كلية. خلص.

- بيجى ليه آداب؟

- عشان أصحابه.

- هو بيشتغل إيه؟

- شاعر.

ضحكت جدًا، وفجاة قالت: «هنا يا أسطى من فضلك»

باى طيب

نظر لى السائق وقال: هاتنزل يا أستاذ؟

- لا. خلاص. هانزل المحطة.

رأيت فى ضحكتها سخرية مني ومن صاحبى ومن الشعر ومن كل عالم المجانين الذى يدور على مقربة منها.

فى كافتيريا الكلية، التى كانت بمثابة الحصن لنا، وخاصة فى نهارات رمضان، لمحتها تمر ، لم أر نفسى إلا وأنا أتبعها.

- استنى. عايز اتكلم معاكِ.

- طيب تعال نوقف فى قسم جغرافيا بعيد عن البنات شوى.

- يلا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرت إليها وهى تلبس بلوزة من الكتان المقصب. التقصيب كأنه ممرات فى الصحراء. أو أشعة شمس تمر صباحًا على معبد. كنت أقيس المسافة بينى وبينها. كنت أريد أن أكون قريبًا من رائحتها ومن تنفسها. تلعثمت. تحدثت عن جرجا، عن مصنع السكر، عن العسل الأسود، عن النيل، عن المراكب الشراعية هناك. قلت لها: «أريد ان أذهب إلى جرجا». «سأذهب إلى جرجا». لمحت التونى يقف بعيدًا، يراقب المشهد. فجأة، كأني استيقظت من نوم، وجدت نفسي وحيدًا، ومحمد يهرول نحوي.

- ايه اللى حصل؟

- مش عارف!

- قولتلها إيه ؟

- مش فاكر.

- أنت سكران؟!

- ايوه. أنا مقدرش أكلمها إلا وأنا سكران.

كانت علاقتى بلولا علاقة أرغبها وأريدها وأبحث عنها. كنت أحس أنها اكتمالى. هى آخر الحكاية. هى أول الركض ونهايته. هى القارب الصغير الذى يحمل روحى إلى الغرب. لولا كانت التأسيس الأول للفشل. كنت أذهب إليها بكل طاقتي، بكل جموحي، وأنا على يقين بفشل ما أسعى إليه. كنت أعرف أنها بعيدة، وأنا أيضًا. نحن فى السنة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخيرة، فى الشهور الأخيرة، بعد قليل، سأودعها فى محطة القطار، ستذهب هناك، وأنا سأهرب إلى الشمال، إلى القاهرة. ولن نلتقى أبدًا. كنت أعرف هذا الأمر جيدًا. قالت لى صديقتها مرة: «لولا مش لك. لولا لازم ترجع جرجا. انتو من عالمين مختلفين جدًا». قلت لها: «عارف». ضحكت وقالت وهى تمشى وتهز ردفها فى غنج، ويدها معلقة فى الهواء:»ضايع».

المنيا، محطة القطار، يوم ٢١ مايو ١٩٩٤، الساعة الحادية عشر مساءً، على رصيف الصعيد، وقفت فوق سلم الكوبرى، وأنا أتطلع لها وهى مع صديقاتها، وتجلس على شنطتها البنى، وتلبس البلوزة نفسها، وتحرك يدها اليمنى باتجاه شعرها، وترفع وجهها، هناك، حيث أقف. عندما لمحت القطار قادمًا من الشمال، كنت أفكر فى تلويحة وداع، إلا أنني أحسست بأني لست فى مشهد سينمائي، وضعت مرفقى على سور الكوبرى، ورحت أضحك وأدخن، أضحك وأدخن، وفجأة وهى تصعد القطار، رفعت وجهها نحوي، ابتسمت ولوحت لي. أظن أني بكيت. لولا كانت أكثر من حب وأكثر من فشل.

تلك هى الحياةُ

الساعات الأكثر حظاً

كخربشات طبشور

على لوح فى صف.

نحدق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونحاول فهمها

ثم يُدير الحظ ظهره-

ويمحو كل شىء.

كاساندرا- فى مدينة الكلمات- ألبرتو مانغويل

أنا على عتبة دارك. أنا أمام بيتك. طول النهار والليل، أجلس أمام العتبة. هل قلتِ لى عليَّ أن أقف سبعة أيام وسبع ليال بلا نوم. لو نمت لن تدخل بيتى. ماذا قلتِ لى مريم؟ كم يومًا مرَّ مريم؟! أيام بلا عدد. شهور لا تحصى. سنوات عديدة. أنتِ لست هنا. البيت فارغ. القبر فارغ. العالم فارغ مثل علبة صفيح صدئة. هأنا أقرع علبة الصفيح الفارغة، لا تصدر أيَّ صوت، فقط تتساقط..العالم مصاب بالجذام. العالم يتساقط قطعة قطعة، ركنًا ركنًا، زاويةً زاويةً.

يقولون رجل فارع الطول مرَّ من أمام بيتك وأخذك معه. لم يمهلك حتى تفتحين له الباب، مد يده من الشرفة وحملك بين يديه مثل عصفورة صغيرة. رأوك معلقة بين أصابعه فى مودة بالغة. لم تقاومى. لم يخطفك. قالوا: إن الزواج وفقًا لعادات قبيلتك يشبه الخطف. يأتى العريس مع حصانه ويجرى مرات فى دائرة حول عشيرتك، وأنت تقفين فى المنتصف تمامًا، وفجأة يقبض عليك ويرفعك بيده أمامه على الحصان ويجري بك إلى خيمة بعيدة وهو على استعداد أن يقتل كلَّ من يتعرض له أو يحاول منعه من الحصول عليك. هكذا يتم تزويجك. ما حدث كان مختلفًا. مدَّ يده من الشباك وحملك ومشى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا أصدق هذه الحكاية، فهى تليق بك يا مريم. يا حمامة. يا يمامة. يا عصفورة. يا شجرة العليقة.

هذا الصباح، وجدتنى أبكى. أبكى فجأة وبدون سبب. رجفة خفيفة انتابت الجسد كله، مثل مداعبة هواء بارد فى صباح خريفي. أعضاء جسدي كلها تحركت بشكل لا إرادي، وغير محسوس، بعدها وجدتني أجهش بالبكاء. لم يكن الأمر سيئًا، على العكس، وجدت راحة بعدها. كان البكاء مصحوبًا بلذة غامضة. لم أكن حزينا ولم أكن سعيدًا، فقط كنت أبكي.

كان يوم أحد. أكره أيام الآحاد. كان أحد القيامة، عندما ذهبت إلى بيت مريم، لكى أقول لها: «المسيح قام. اخرستوس آنستى». فتقبلنى كأنها تمنحنى «العيدية» وأنا أنتظر عيديتها بفرح . لكنى لم أجدها. وجدت البيت مغلقًا. طرقت الباب أكثر من مرة، وانتظرت وقتًا طويلًا، ولم يفتح لى أحد. أحسست أنى أطرق باب بيت فارغ. أحسست أنى أطرق بابًا فى رأسى، فى الهواء، فى الفراغ. عدت سريعا إلى البيت ودخلت إلى أمى وأنا ألهث وأبكى وأشدها من طرحتها السوداء: «قوليلى مريم راحت فين؟» تطلعت نحوي وانتظرت لكى تتنفس وقالت بصوت محايد جدًا: «راحت بلدهم عشان هتتجوز». لم أفهم لماذا أمي لم تكن متعاطفة معي؟ لِمَ أنا وحدي، أدافع عني وعن مريم؟ لِمَ ذهبت مريم للزواج؟ هل عليها أن تتزوج؟ هل لابد من الزواج؟

سريعًا، كنت خارج القرية، أبحث عن مريم. تركت خلفي البيوت، صراخ الأطفال، أصوات الرجال والنساء، الحقول، الجبل، دخلت إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقابر، وعند شجرة نبق هناك، قعدت أبكي.

الحجر يلمع تحت شفتي. أمتص ماء الحجر. أبحث عن اسمك بين شواهد القبر. قلت لى: «الشياطين لن تترك لى حجرًا. لن نستطيع التنفس ونحن معًا»(4). أتشبث الآن بموتك. أنت لست حجرًا. أنتِ تسيلان. أنت بول. أنت الرماد والأوعية. أنت زهرة الخشاش. أنا باخمان حبيبتك وخائنتك. لن أكون عشيقتك بدون خيانة. أنت تعشقنى لأنك تعلم أنى سأخونك يومًا ما. وسوف أواصل الحياة بعدك. أنت تموت هنا وأنا أكتب القصائد وأعيش موتك. سيقولون ها هى باخمان حزينة وضائعة لأجل تسيلان. لا تصدق. أنا حزينة وضائعة قبلك. لن ألقي بنفسى إلى نهر السين كما فعلت تسيلان ولكن سأنفذ وصيتك وأغرز السكين أو سأموت على طريقة الساموري. أقول لك، أنا لا أستحق هذه الميتة التقليدية، ستجرفنى الحجارة كلها إليك.

لنغسل هذه الجثّة

لنمشط لها شعرها

ولنوجّه عينيها نحو السّماء

(تسيلان)

كنت أتوقع أن تتحدث إليّ من تل أبيب ولكنك لم تفعل. أفهم لماذا ذهبت هناك. كنت أتحدث إلى أصدقائنا: «لم يذهب تسيلان إلى تل أبيب بحثًا عن دولة، لكنه ذهب للبحث عن أبيه». لم يصدقني أحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن هذا أنت وأنا أصدقك. لم تكن اليهودية لك إلا ثقبًا فى جمجمة أبيك، طلقة فى رأس أمك.

- تسيلان هل تعرف فيما أفكر؟

فى قصيدة،..

- لا.

كنت وحدي على نهر السين أبحث عن جثتك. أنت قلت: «أحفر قبرًا فى الهواء كيلا يكون ضيقًا».

«صديقي الوحيد..

أريد أن أراك، لأتلقى المغفرة على يديك وأسمعها من شفتيك. أريد أن أكون جاهزة أخيراً لوجهة جديدة، في الحقيقة هي وجهة قديمة، العودة إلى عملي وإليك. لا أريد هذه القبلات، لا أريدها. لماذا أنا بعيدة عنك؟».(5)

عزيزتي إنجبورج

وإذن ستأتين بعد شهرين فقط، لماذا؟ لم تخبريني بذلك، ولا كم من الوقت ستظلين، ولا ما إذا كنت ستحصلين على منحتك. سيمكننا في الوقت نفسه أن «نتبادل الرسائل»، التي تقترحين. أتدرين، إنغربورغ، لماذا لم أكتب إليك إلا نادرًا هذا العام؟ ليس لأن باريس فرضت عليّ صمتًا قاسيًا لم أستطع الإفلات منه وحسب، بل أيضًا لأنني لم أكن أعرف رأيك في تلك الأسابيع القصار بفيينا؟ فماذا كان بإمكاني أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أستنتج من سطورك تلك، الشحيحة الأولى، إنجبورج؟

ربما أكون على خطأ، ربما كلانا يتحاشى الآخر في المكان اللائق حيث نتوق إلى اللقاء، ربما كلانا يستحق اللوم. باستثناء أنني أقول أحيانًا لنفسي أن صمتي قد يكون مفهومًا أكثر من صمتكِ. بسبب أن الغموض الذي يفرضه عليّ قديم. أنت تعرفين: أن على الإنسان دائمًا أن يتخذ القرارات العظيمة بنفسه. فحين تلقيتُ تلك الرسالة منك والتي كنت تسألينني فيها عما إذا كان عليك أن تختاري باريس أم الولايات المتحدة الأميركية، كنت أفضّل أن أقول لك كم سأكون سعيدًا لأجلك لو أنك تأتين. هل تدركين، إنجبورج، لماذا لم أفعل؟ قلت في نفسي إذا كنت حقًا أعني لك شيئًا (كي أقول أكثر من مجرد شيء) في أن تعيشي في المدينة نفسها حيث أعيش، ما كان لك أن تسألينني عن نصيحتي ابتداء – بل على العكس من ذلك. لقد مضى عام كامل الآن، عام، أنا متأكد، من أنكِ قد اختبرتِ فيه كثيرًا. لكنك لم تخبريني كيف كان؟ منذ وقت بعيد، شهرا ماي وجوان قبل هذا العام...كم أنتِ بعيدة أو قريبة مني، إنجبورج؟ أخبريني حتى أعرف ما إذا كنت ستغمضين عينيك أم لا حين أقبلك الآن.

بول

قلبي أملى علي ذلك(6)

- فاكر مريم ونادية وعزيزة؟ قلت لأبي.

- آه، مالهم؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عايز أروح أشوفهم.

- إيه اللي فكرك بهم دلوقت؟

- معرفش. دماغي بتقلب.

- خد عربية يوسف وهو يوصلك.

اخترت أن أقول لأبي، فهو، على أقصى تقدير، سيقول: «الواد مخه تعبان».

- شفتِ ابنك!

- مين فيهم؟

- هو في غيره.

- رجاء؟!

- هو

تضحك.

- سألني عايز يروح لبنات غالي.

تضحك أكثر. أحب ضحكة أمي.

- طول عمره متعلق بهم.

- يا شيخة. مخه تعبان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التقت بي أمي قبيل الغداء.

- صح الكلام؟

- آه صح.

- طيب فكك من الموضوع دا. بلاش تقلب في الدفاتر القديمة.

أضحك.

- هو في دفاتر قديمة؟

- لئيم وبحرك مالوش قرار.

خرجت على أول الشارع، كانت السيارة وعم يوسف في انتظاري. كان صباحًا عندما مررنا بالمقابر التي تفصل قريتنا عن القرية المجاورة. كنا نعبر هذه المقابر مشيًا صوب المدرسة الإعدادية. القرية المجاورة، بحري قريتنا، سكانها من المسلمين، في البداية كنا نخاف وقت عبورنا، ونحرص أن نكون ثلة. كانت خطواتنا تسرع بلا وعي. لم نكن نقدر على التطلع في وجوه الناس، ولا البيوت، ولكن بعد فترة، كنا نشتري الحلوى واللب من البقالات في الطريق، ونشتري خميرة من فرن العيش، ونمر أمام بيت زملائنا وزميلاتنا ومدرسينا. بعد هذه القرية، صحراء بسيطة، صغيرة، وأعمدة تلغراف مُوزّعة حتى المدرسة. كانت مدرستنا مرمية في الصحراء بين القرى الثلاث، رغم ذلك كانت تشبه الواحة الصغيرة. هذه الواحة تضم: مدرسة ابتدائية، ومدرسة إعدادية، ووحدة صحية، وسنترال صغير. كلما مررت بهذه

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البقعة، يخفق قلبي. تدور رأسي إلى الوراء مثل عقارب ساعة معلقة في ساعة حائط في فيلم كرتون. هنا كنا نلعب كرة القدم طول الفترات المستقطعة: بين الحصص، وقبل المدرسة وبعدها، وهنا شجرة توت، كنا نصعدها ونمزق قمصاننا بلا هوادة، وهنا تلكأت عن الشلة وسرت مع الفتاة التي كنت أحبها. كانت تمر على بيتي فى الصباح، فأخرج معها، وبعد اجتيازنا قريتنا نلتقي بباقي الأولاد والبنات، وفي طريق العودة كنا نتخلف عن السير، بأكثر من عذر، ومن حجة، لكي نمشي معًا. كنا ندخل الشوارع غير المطروقة من شلتنا، لكي أمسك يدها وأكون قريبًا منها.

عندما تجاوزنا المدرسة، بدأ يحكي لي عم يوسف عن الصراع بين الأرثوذكس والبورتستانت في القرية، حتى ينتهي بالصراع التاريخي.

- انتو الاتنين هاتروحوا النار.

- وانت هاتروح فين؟

- أنا هاروح حتة تانية خالص.

- طيب خدنا على جناحك.

- طيب يلا اركب. هارفرف.

فيضحك بحنوٍ شديد.

بعد قليل كنت على رأس بيت غالي. ندهت بصوت مرتفع. يا عم نصيف. نصيف هو عم البنات. الرجل الذي كنت أراه مرات قليلة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيت البنات. خرج لي رجل في الستين تقريبًا، تعرفت على ملامحه.

- مين؟

- أنا، يا عم نصيف، رجاء، ابن موسى.

- تعال يا ابن الناس الحلوة.

- تعيش.

- إيه اللي فكرك بينا! خطوة عزيزة.

- كنا بنزور الدير، قلنا نعدي نسلم.

- حصلت لنا البركة.

دخلنا. جلست ومعي عم يوسف على كنبة في مدخل البيت مباشرة، فكنت أرى الطريق، وبضعة أولاد يلعبون هناك.

- دخلت طب؟

- لا يا عم نصيف.

- هندسة؟

- ولا؟

- ايه؟

- آداب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يعني إيه. هاتطلع إيه؟

- مدرس فلسفة؟

- وى. ليه كده. انت كنت واعي قوي وانت صغير.

- ولسه واعي أهو.

- مش القصد. بس...

- إزي مريم ونادية وعزيزة؟

- نادية.. استنى ابنها هناك بيلعب. على عتبة الباب، بصوت قوي: «يا إسحاق».

جاء شاب يصغرني قليلا، وكلما يقترب مني يزداد ارتباكي.

- سلم يا إسحاق. دا ابن عمك موسى.

- إزيك يا أستاذ؟

- إزيك انت يا إسحاق.

إسحاق يشبه كثيرًا شخصًا أعرفه. إسحاق يشبه صورة معلقة في غرفة جدي. إسحاق ابن نادية يشبه خالي. خالي الذي مات في الجيش بعد ولادتي بنحو أربع سنوات. خالي هو الشهيد. لم يمت في الحرب، لكنه مات بعدها. خالي عبر خط بارليف مع العابرين. خالي شهد النصر، وجاء ملفوفًا إلى القرية بالعلم، جدتي صارت أم الشهيد، وكانت تقبض معاش الشهيد. هي تقبض المعاش حتى الآن. جدتي عمرها الآن ١٠٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنة. جدتى تقبض معاش الشهيد منذ خمسة وأربعين عامًا. جدي لم يقتنع بموت ابنه من جراء لغم. جدي لم تنطلي عليه الحكاية الرسمية. كان يذهب إلى الوحدة العسكرية التي كان بها خالي لأكثر من مرة في السنة. حاول أن يعرف سبب مقتل ابنه. جدي كان يشعر أن ابنه مات بسبب أمر شخصي، ربما يكون طائفيًا. إسحاق ابن نادية وابن خالي. عرفت الآن الحكاية.

- وفين مريم... وعزيزة؟

- مريم اتجوزت وراحت مع جوزها سمالوط، اشتروا أرض وعايشين هناك. وعزيزة متجوزة هنا وعايشة ومعها ٣ ولاد وبنتين.

- ربنا يخلي. سلم عليهم.

- الله يسلمك.

نتغدى؟

- تعيش. قلنا نسلم.

- الله يسلمك يا ابني. السلام أمانة لأبوك. أبوك رجل حلو يا ابني.

- وهو بيحبك يا عم نصيف.

- القلوب عند بعضها.

دخلت إلى السيارة أكثر ارتباكًا. كنت على وشك البكاء. خالي يبعث أمامي الآن. لماذا لم يحتفظ جدي بابن ابنه؟ لماذا لم يتزوج خالي من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نادية؟ فهمت الآن، لماذا كانت نادية تصرخ وتولول أكثر من النساء جميعا. نادية كانت تبكي زوجها، والد ابنها .. نادية كانت تبكي حظها.

أنا في حاجة إلى الماء. قلت لعم يوسف: «عايز اشرب». لم يكن اختراع زجاجات المياه قائمًا في قريتنا. قال:»طيب. كنت كويس وبتضحك. معرفش إيه اللي حصلك. أمورك عجيبة يا أخى» في الطريق توقف فجأة، وقال لي: «انزل». نزلت. فأخذني إلى طرمبة مياه، وأحضر كوبا من البيت المجاور. وحرك يد الطرمبة فاندفعت المياه عذبة رائقة. مددت الكوب أمام فم الطرمبة، شربت شربت شربت.

- أوف. كل دا عطش. تاني؟

- آه تاني. هاخد للطريق.

- يخرب بيت أبوك. مالك؟ هايجيلك جفاف ولا إيه؟

ضحكت. وغسلت وجهي بالماء وبللت شعر رأسي، ورجعت إلى البيت، كان النهار يقترب من الزوال. صعدت إلى حجرتي، في الطابق الثاني، تخلصت من الحذاء ومن ملابسي ونمت.

كانت مريم تقف في وسط البيت. شعرها منسدل على كتفيها. فستانها مرزكش بالورد. تقف حافية وخلفها شجرة الليمون. مريم لا تحب الأحذية. رجلاها حرتان، منبسطتان، طليقتان، تذهبان، تجيئان، ترقصان، تلتفان على بعضهما بعضًا، في وضع يشبه وضع المسيح على الصليب. كانت تلمسني بأصابعها، كانت تدغدغني بأصابع قدميها. كنت أقبل قدميها، فتضحك. رأيت مريم وسط البيت. ضحكت. سمعتها. لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقدر على تفسير الكلام. للبيت رائحة الليمون والنعناع. مريم كانت هنا.

نادية هناك تنتحب. أسمع أنينها من وراء الباب. هى تسمعني، وتقولى لي: «تعال». هل أنا إسحاق؟ نادية تناديني: «تعال». لم تكن مريم هذه المرة، بل كانت هي. لأول مرة أسمعها تناديني. دخلت حجرتها، كانت تبكي. قالت لي: «أنت ابني». جلست بجانبها، لا أقدر على الكلام ولا الحركة.

عزيزة تدق الباب. أقوم لكي أفتح. فلا أجد أحدًا. أتلفت يمينًا ويسارًا في الشارع. لا أحد. أغلق الباب وأعود إلى حيث أنا. أنظر، فلا أجد أحدًا. لا مريم هنا، ولا نادية وراء الباب.

عندما استيقظت كانت العتمة واقفة على الباب. ولما فتحت عينيئ دلفت إلى الداخل. قمت وجلست على السرير، سمعت صوت أمى تحت، وهى تهش الفراخ أمامها اتجاه الخن. الدجاج يوقوق وعصا أمى تطرق الأشياء وهى تعبر البيت. الضوء القليل الذى يأتى من الشباك مصدره لمبة عمود الإضاءة البعيد،الواقف بين تقاطعات شارعنا القبلى. عمود الإضاءة يقف فوق حنفية المياه الجديدة. ضوء أصفر ناعس يدخل الغرفة. أقوم وأنظر، امرأة من الجيران تملأ طبقها البلاستيك وتنظر نحو اللمبة.

ليلة السابع عشر من أكتوبر من عام ١٩٧٣- روما- ماتت باخمان محترقة فى شقتها.

دخان كثيف يتصاعد من البناية رقم Xالساعة O يوم الخامس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعشرين من سبتمبر. جمع غفير. صعدت باخمان إلى المنصة، حيت جمهورها، وألقت قصيدتها:

أيام أكثر صعوبة تقترب .

الزمن المؤجل الباطل

يتبدى في الأفق .

***

أحب أن أرى الحمامة

ولا شيء إلا الحمامة

التي نجت ثانية .(7)

سأخرج من هذا العالم وحيدة مثلما كنت دائمًا. سأخرج من الباب الضيق. يقول المسيح: «الباب الضيق هو باب الملكوت». أصدقه هذه المرة. طرقى كلها كانت ضيقة. لم تكن لى مراكب. والبحار بعيدة. كيف رأى سان جون بيرس كل هذه المراكب؟ كيف رأى هذه الزرقة؟ الخشب يحملنى إلى الغابة. ضيقة هى المراكب يا بيرس.(8) لا مركب. *الشواطىء محاصرة. فوق الفرن قلى. حمر لحم الإنسان السريع الفساد. عند البحر، على الرمال: اللحم. محاولة طيران. محاولة حب جديد.* (9)الغابة تشتعل. أنا أحترق. انظروا! النار تصعد. جسدى هناك يتطاير.

تسيلان. افتح لى الباب لكى أدخل. أنا حبيبتك باخمان بالخارج. النار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلتهم كل شيء.

في سماء القرنفل يوجد أيضا فم من أجل أن يبتسم لك

ما زال يعرف الطرق المؤدية إليك.(10)

تشيلان. أنا الآن حرة وآتية إليك.

باخمان قادمة.

وأنا جالس فى المقهى، وسليمان محجوب يحكى لى عن عطبرة، كانت المحكمة تقع خلفي. تذكرت أنى جئت إلى هذه المحكمة عندما كنت صغيرًا. جئت بصحبة جدي وأبي. دخلت المحكمة ورفعت عيني بعيدًا، فرأيت «عمي رءوف» بملابس زرقاء، فعرفت أن ملابس السجن زرقاء، ومن الأفلام عرفت أن هناك ملابس حمراء أيضًا. كانت الملابس تلمع، وهو يظهر كأنه قديس يساق إلى الموت. عيناه تدمعان وهو يتطلع إلينا، ونحن نجلس فى الكنبة الأخيرة فى المحكمة. كان «عمى رءوف» متهم بأنه تلاعب فى أسعار سلع التموين. كنت صغيرًا وكنت أعرف أن الأمر كذب، فهذا الرجل كان رقيقًا كأنه يحمل سحابة مطر فوق رأسه التى تشبه مكعب السكر، وعينه اليسرى نصف المغلقة تمنحه ضعفًا وهشاشة. لو رأيت صورته على حائط، سأفكر بأنها أيقونة لأحد حواري المسيح. جدي يعرف المدينة، يعرف القانون، يعرف المحامين؛ لذا تولى أمر القضية، وأوكل محاميًا للدفاع عنه، وبالفعل أطلق سراح «عمي رءوف» وعاد إلى قريته، ولكنه عاد مكسورًا ومجروحًا، فرغم براءته، تم سحب رخصة التموين منه. الملابس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيضاء بها نقطة سوداء. عادت بقالته فقيرة كما كانت، فراح يعمل بمهنة الجزارة، ولكنه اختار فقط أن يذبح الماعز، كأنه لهشاشته لا يقدر على الجاموس أو البقري. كنت أذهب إليه لكى أحصل على حصتنا من لحم الماعز كل أسبوع. أحببت لحم الماعز، لأنه سهل ورائحة الشواء مثيرة، أحب احتراق شعر الماعز، فى الرأس واليدين والقدمين. أبى أيضًا يحب الماعز، ورغم ذلك، لحمتى الفاخرة هى البتلو التى تشبه غزل البنات.

يقول سليمان: «عطبرة تعنى مدينة الحديد والنار، وأيضا يقال أنها تسمى(أثبَرَا) يعنى التدمير والهلاك، وسميت بهذا الاسم نظرًا للتدمير والهلاك الذى يسببه نهر عطبرة فى الفيضان. أنا من عطبرة، من مدينة الحديد والنار، من مدينة التدمير والهلاك. هل رأيت رجلًا يأتى من هناك سواي» ويضحك وهو يضع قدمًا على الأخرى ووجهه يلمع ويداه تتطوحان فى الهواء كأنه يريد أن يسبح. سليمان كان يشبه قبائل الدينكا فى طوله ونحافته. كان يبلغ نحو ١٩٤ سم. لا أعرف كيف التقيت بسليمان محجوب؟ كأني فجأة وجدت هذا الرجل، الذى ينتسب إلى قسم اللغة الانجليزية فى كلية الآداب، فى طريقي إلى البيت. كان يأتي لكي يطمئن عليّ فى قسم علم النفس، وعندما يظهر من بعيد، كأن سرب من العصافير يحوم حول رأسه، فأتقدم نحوه فى اعتزاز وفخر بهذا الرجل الذى يمشي كأنه نصف إله. سليمان محجوب حمل السودان إليّ، تاريخ السودان، شماله وجنوبه ووسطه وشرقه وغربه، سمعت معه أغانى محمد الأمين، كنت فقط أعرف محمد وردي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو لى كان أيقونة الغناء السودانى، عرفت معه مصطفى سيد أحمد، هذا المصطفى سى أحمد سوف ينقذني كثيرًا فيما بعد. عندما زرت سليمان محجوب فى غرفته، فى شارع عدنان المالكي، المنيا، وجدت كنبة مفروشة بمجلات فنية مثل: الموعد، الكواكب، ... وبوسترات ممثلات على الحوائط، فضحكت وقلت: «فين الكتب يا سليمان». ضحك وجلس على الكنبة:»ما فى كتب ولا أقلام. أنا جاهل وبتاع صور ستات عريانة». بعدها قام من على الكنبه وراح يجرجرها ويفتحها من جنبها، ويقول لى: «تعال انظر». فرأيت بطن الكنبة مكتبة شيوعية كاملة.

قال لى: «احنا هنا بنتفتش كتير لوضعنا كسودانيين، ومش ممكن نخلى الكتب دى مكشوفة. لما العسكر بيجي بيبص على الحيطان ويقلب فى المجلات، وبيقول دول شباب بتوع بنات».

سليمان محجوب قتل من قبل عسكر البشير فى مظاهرة بالجامعة بالخرطوم عام ١٩٩٤.

أنا هنا يا صديقي أحفظ دمك. أسمع عنك محمد الأمين «الحب والظروف - قلنا ما ممكن تسافر».

«والغريبة الساعة جنبك تبدو أقصر من دقيقة والدقيقة وأنت ما في مرة ما بنقدر نطيقها».

أشم رائحة الحناء من كفك. عندما أنظر إلى أعلى، أرى وجهك، وأرى ضحكتك. أنت شمس القتلى يا صديقي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ها هيَ الأرض تغطت بالتعب، والبحارُ اتخذت شكل الفراغ

وأنا مقياس رسمٍ للتواصل والرحيل

وأنا الآنَ الترقبُ و انتظار المستحيل

انجبتني مريم الأخرى قطاراً وحقيبة

ارضعتني مريمُ الأخرى قوافي

ثم أهدتني المنافي

هكذا قد خبّروني ثم قالوا ليترجل

ثم أنتِ

أنتِ يا كلُ المحاورِ

والدوائر

ياحكاياتِ الصبا

تحفظين السر والمجد الذي ما بين نهديك اختبأ

ليس يعنيكِ الذي قدضاع من عمري هبأ

وأنا صغيرتي لستُ أدري ما الذي يدفعني دفعًا إليك

ماالذي يجعلني أبدو حزيناً حين أرتاد التسكع في مرايا وجنتيك

لا عليك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشهدُ الآن السفوح المطمئنة

نحن قاتلنا سنينًا واقتتلنا

نحنُ سجّلنا التآلف وانفعالات الأجنة

واحتوانا البحرُ والمدال يقاوم والشراع

ياهذه البنتُ التي تمتدُ في دياي سهلًا وربوعًا وبقاع

ماالذي قد صبّ في عينيكِ شيئًا من تراجيديا الصراع

والمدى يمتدُّ وجدًا عابرًا هذي المدينة

خبّريني ... هل أنا أبدو حزينًا

هل أنا القاتل والمقتول حينًا والرهينة؟

هل أنا البحرُ الذي لا يأمن الآن السفينة؟

خبئيني بين جدران المسام

قبليني مرة في كل عام

فأنا احتاجُ أن ألقاكِ في كل عام

وأناأحتاجُ أن ألقاكِ في ذرات جسمي

في الشرايين المليئةِ بانقلاباتِ المزاج

في انعكاسِ الضوءِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في النافذةِ الأولى وبلّور الزجاج

هكذا قد خبّروني ثم قالوا ترجلْ

وعلى أطروحة الحلم المسافر ألتقيك

على حمى الرحيل المستمر الآن في كل المواطن ألتقيك

في مساحات التوهج ... فيجبيني ألتقيك

في انشطار الوقت في كل الذرى

وفي حكايات الطفولةِ إذ يعودُ بنا الزمانُ القهقري

آه لو تأتينَ يا سيدتي من كل فجٍ واتجاه

من عميقِ الموجِ

من صُلبِ المياه

تستطعين التنقّلَ بين أرجائي وظلّي

تستطعين التوهجَ عند لحظات التجلي

ولعينيكِ امتلاكُ وثائقي حتما وقلبي

ولعينيك التنصلُ عن مواثيقي ودربي

هكذا قدخبروني ثم قالوا ليترجل وأنا ابحثُ عن صيغة هذا البعدِ ..

هـذا اللانهـائـي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن قرارِ الشعر عن لونِ التغرب بين جدران المقاهي آه لو تاتينَ .. آه

تجدينَ الألف الممتدَّ سهلاً بانتظارك

وأنا كالحذر المنساب خوفًا بين صالات الجمارك كالرحيل

كالترقب وانتظارِ المستحيل

هكذا قد خبّروني ثم قالوا ليترجـل

(أغنية مريم الأخرى- كلمات:محمد عبدالله شمو -غناء: مصطفى سيد أحمد)

https://soundcloud.com/waheeb-bakri/ngc4redbbhmr

كانت مريم تصعد بي إلى سطح البيت لكى أساعدها فى نشر الغسيل. كانت تصعد أمامي السلم الخشبي المؤدي إلى السطح. أحفظ درجات السلم التسعة. أنا خلفها، أنتظر أن ترفع رجلها من فوق درجة السلم لكى أمسك بها فى موضع بطن رجلها نفسه. كنت أحس رجلها فوق الخشب. أحس نبض الخشب أثر مرور قدم مريم. كنت أريد تقبيل الأثر.

قالت لي:» تمنَّ أمنية».

قلت: «إن أكبر وأبقى قدك». ورفعت يدى إلى فوق بشكل تدريجي وأنا أقول: «أطول إلى هنا (أقف عند خصرها) وأطول إلى هنا (أقف عند كتفها) وإلى هنا (رأسها).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أنتِ كمان، أتمنى أمنية».

قالت: «إن أصغر وأبقى قدك». ونزلت بيدها إلى هنا (فى الهواء) وهنا (فى الهواء ثانية) وهنا (فوق رأسى).

قالت: سنلعب اللعبة.

رحت أرفع يد فوق يد وأنا أقول:» إلى هنا، وهنا، وهنا...»

وهى تنزل بيد أسفل يد، وتنزل بجسدها وهى تقول:»الى هنا، إلى هنا، إلى هنا...»

وفى لحظة لقاء متخيلة فى الهواء تضمني إلى صدرها.

- مش هتنسانى أبدًا

- مش هنساكِ أبدًا

تظهر لي مريم فى المرايا، وفى زجاج السيارات، ألمحها، وأنا خلف مقود السيارة، فأبكي. أنظر إلى السيارات التى تنهمر من كل جانب، أذهل إلى جانب من الطريق، وأتوقف هناك لكى ألتقط الدمع الذى يتدفق على مهل بدون كلكسات كلما أبطأت السرعة أو انحرفت قليلًا عن الطريق.

مريم. مريم. مريم

صوت صارخ فى التيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صوت صارخ فى الروح، فى الجسد، فى الموت.

أزور قريتي من فترة إلى أخرى، ولا بد لى، بعد رؤية أمي، أن أذهب إلى خالي حيث يقيم فى بيت جدي، وفى الطريق أتطلع إلى البيت الذى كان بيت مريم، وبيت نادية، وبيت عزيزة. لم يعد بيتًا بل صار وحدة سكنية مكونة من ثلاثة أدوار أسمنتية، وفى الأسفل محلان، واحد للبقالة والآخر للفاكهة والخضراوات.

لم يعد بيت مريم أكثر من فجوة فى الذاكرة. أنا أعمل على ترميم هذه الفجوة طوال هذه السنوات. لا عمل لى، بعد أن ترنح جسدي وصار يئن تحت شمس الغربة، بعد أن كان يبتهج لأشعة الشمس مثل حقل قمح، صار يتعرق ويزبد كأنه يجر خلفه خمسين عربة متهالكة.

أفتقد مريم. أعيش فقدها.

ها أنا رجل على حافة العمر، وأقول بثقة ومرارة: أنا أفتقد مريم.

ربما أتغذي على فقدها، ولا تعني لي الحافة إلا شوطًا آخر لأبحث من جديد عن فقدها.

تجرأت وكتبت القصيدة، وتجرأت ثانية ودفعتها إلى يد د. على البطل فى حلقته الأسبوعية، كل أحد، على كورنيش المنيا. سألني: ماذا تريد؟ قلت: القصيدة.

قال: ستذهب أبعد.

وجدت قصيدتي منشورة فى عدد الشهر التالي من المجلة التى

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصدرها بكلية الآداب - قسم اللغة العربية. لا أعرف لماذا نشرها؟ سألت التوني، قال: يرأف بك(صعبت عليه). ضحكت. أخيرًا وجدت الرأفة. أول مرة ذهبت الى الحلقة الشعرية التى يديرها د. على البطل، وجدت مسدسًا له على الطاولة، فأحببت هذا الرجل الذي يوحد بين الرصاص والقصيدة. قلت أنا أيضًا أؤمن بالرصاص. سألت الأصدقاء. قالوا: «هو على قائمة اغتيالات الجماعة الإسلامية بالمنيا».

القصيدة الطقوسية: الطقوس التى أسست النص الشعرى العربى هى متأصلة فى الطقوس الوثنية، ومثال على ذلك طقس الاستمطار، يقول السياب:

رحىٰ تدور في الحقول... حولها بشر

مطر...

مطر...

مطر...

وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع

ثمّ اعتللنا ـ خوفَ أن نُلامَ ـ بالمطر...

مطر...

مطر...

ومنذ أنْ كنّا صغارًا، كانت السماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغيمُ في الشتاءْ

ويهطل المطرْ،

وكلَّ عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعِراق ليس فيه جوعْ.

مطر...

مطر...

مطر...

في كل قطرةٍ من المطرْ

حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراةْ

وكلّ قطرةٍ تُراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظارِ مبسم جديدْ

أو حُلمةٌ تورَّدتْ على فمِ الوليدْ

في عالم الغد الفتيِ، واهب الحياةْ!

مطر...

مطر...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مطز...

سيُعشبُ العراق بالمطز...(11)

خرجت من دروسه مبللا بماء المعلقات. قال: «الاستعارة أسطورة مصغرة». نورمان فريدمان. ومنحنى كتابه»الصورة فى الشعر العربي حتى آخر القرن الثانى الهجرى – دراسة فى أصولها وتطورها».

---

(3) قصيدة لناظم حكمت. ترجمة خليل كلفت

(4) بول تسيلان فى رسالة إلى إنجيبورج باخمان

(5) قصيدة لباخمان. ترجمة؛ الخضر شودار

(6) رسالة تسيلان إلى باخمان، ترجمة؛ الخضر شودار

(7) باخمان، ت: سوار ملا

(8) سان جون بيرس

(9) باخمان، العام الثلاثون.

(10) باخمان

(11) بدر شاكر السياب: أنشودة المطر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Atemwende

تحول. قنينة. مصافحة. غياب. الترقب. النَّفَس. مرة تلو الأخرى. بوكوفينا. باريس. ١٩٧٠. كرب. زوال. ثلج. خشخاش. مقصلة.

- كأنك تعرفنى؟ هل تعرفنى؟

نعم أعرفك. رأيتك فى المقبرة تضع وردة على شاهد.

- أية مقبرة؟

المقبرة التى هناك. هناك شاهد، واسمك.

- اه تذكرتك.

لا بأس. لن تنسنى فى المرات القادمة.

رمل. أوعية. شموس. الوقت. الثلج يغمر كل شىء. الوقت صقيع. الصيف هناك يقع خلف السور، خلف الحديقة. الشمس نصل سكين. تمزق. باخمان. مريم. لولا. سلوى. يولا.

من فمى تخرج شجرة توت. من يدى يلتهم الخريف ورقته. أمشى نحو أبى، نحو المقبرة وأصفق بيدى، فيخرج لى صفا من الموتى. عمى وأبى وأمى وجدى ومريم ويولا وسلوى وأنا.

- هل تعرفنى؟

نعم أعرفك. التقينا من قبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- من أنا؟

أنت الوقت.

نحن أصدقاء. *نقشر الوقت عن الجوزة ونعلمه المشي. يعود الوقت إلى الجوزة مرة أخرى.* إنه الأحد فى المرآة. مريم تنتظرنى يوم الأحد. الرب معلق على باب الكنيسة يوم الأحد. أجراس وقطعان ماعز وكلاب تنبح وقسيس وتاجر وغجر وفساتين ملونة وملائكة وشجرة ليمون ونعناع وعلكة فى الفم.

Telegram:@mbooks90

باخمان، *أنتِ الأشد بياضًا فى العالم أستطيع أن أحبك.*

تسيلان، احفر لى قبرًا فى الهواء، لكى لا أموت.

حفرت لك قبرًا فى الهواء، وقبرًا فى الماء، وقبرًا فى النوم، ولم تأتين.

من يذهب ومن يأتى؟ Atemwende هو تحول النفس. هو بلور النفس. هو الوقت المنقضى بين الزفير والشهيق. هو البرهة. هو الفرجة. هو تفتح زهرة التوت. من أنا؟ ومن أنت؟

- أنا رأيتك.

لا أحد يرانى ويعيش.(12)

ها أنا استلقي على عتبة الدار وأنتظر عودة مريم. أتسول المستقبل كما كنت أتسول الماضى. إلى أين أذهب؟ لا مكان لي. منذ أن مرّ القطار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من هنا ١٩٧٠ وأنا لا مكان لي.

سأذهب إلى مصر.

كلم عين الغريبة وقل: كونى الماء.

اللواتى تعلم أنهن فى الماء اطلبهن فى عين الغريبة،

نادهن ليخرجن من الماء: راعوث، نعمى، مريم.

...

أرايتن: إنى نائم جنبها!

أكس الغريبة جنبك أجمل الكسوات.

تقهرنى لغتي. لا أحد هنا يحبني. لا أبي ولا أمي ولا عمي ولا باخمان.
أنا لا أكتب لغتي. أكتب لغة أعدائي. اللغة هى موتي.

المكان الذي كانوا يتمدّدون فيه

كان له اسم

لم يعد له اسم

إنّهم لم يعودوا ممدّدين هناك

شيئًا ما أضحى يتمدّد بداخلهم

ويحجب عنهم الرّؤية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّه أنا.. أنا

الذي يتمدّد بينكم

كنت منفتحًا

وصوتي يدرككم

كنت أمدّ أصابعي نحوكم

إنّه أنا دومًا

كنتم نائمين.. أليس كذلك؟!

لنغسل هذه الجثّة

لنمشط لها شعرها

ولنوجّه عينيها نحو السّماء(13)

لا يمكن لنا أن نتنفس ونحن معًا. على أحدنا أن يموت وعلى الآخر أن يحترق. حملت الحجارة لسنواتٍ عديدة وحفرت أنفاقًا وهيأت طرقًا للغزاة. من يحمل اسمي عني؟

سمعتُ أن الفأسَ

سمِعتُ أن الفأسَ تفتّح كالزهرةِ،

سمِعتُ أن المكانَ لا يمكن الكشف عن اسمهِ

سمِعتُ أن الخبزَ الذي ينظرُ إلى الرجلِ المشنوقِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشفيه،

الخبزُ الذي خبزته له زوجته.

سمِعتُ أنهم يسمون الحياة

ملجأنا الوحيد.(14)

«لم يكن فى بداية هذا العالم إلا جسد وحيد على هيئة رجل. نظر حوله فلم يجد سوى نفسه. أضحى ذلك الكائن الأول خائفًا، بالتالي يصبح المرء خائفًا حين يكون وحيدًا، فناجى نفسه: «مم عليَّ أن أخاف ما دام لا يوجد أحد غيري؟»، فزال عنه هذا الخوف. أساسًا، مم يخاف؟ يخاف المرء بأى حال، من الآخر. لم يجد متعة على الإطلاق. إذن لا يجد المرء متعة حين يكون وحيدًا. أراد أن يكون له رفيق. كان حينها بحجم رجل وامرأة متعانقين عناقًا لصيقًا، فشطر جسمه إلى جسمين، ما أدى إلى زوج وزوجة». **أريستوفان**

صارت قاحلة أرض طفولتي. الآن خَرِبٌ . نزلت عن سرير ولادتي، أبحث عن أمي خارج الغرفة. قالت لى جدتي: «أمك راحت الجنازة». لم أفهم سوى أن أمي راحت، وحفظت كلمة «الجنازة». الآن، لا أقدر على الفصل بين «الجنازة» و «الرحيل» و «أمى».

---

(12) وقال: «لا تَقْدِرُ أنْ تَرَى وَجْهِي، لأنَّ الإنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ». سفر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخروج

(13) تسيلان

(14) تسيلان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة
Telegram :@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner